الحذاء الاحمر اللامع

قصة بقلم نايف شرف الدين

ها قد وصلت يا منصور . نشاطك اليوم يستحق تساؤلا . لا يمكنك ان تصدق انك قطعت المسافة ، من بيتك حتى الشارع الشرقي ، بربع ساعة واحد . بالامس استغرقت ، نفس المسافة ، عشرين دقيقة . وقبل أمس استغرقت خمسا وعشرين دقيقة . وغدا ، يا منصور، كم سيستغرق وصولك الى هذا الشارع البديع ، حيث يقبع مخزن الاحذية الحديثة ؟

انك لا تستطيع ان تتكهن . ولكنك تخشى ، ولا ريب ، على نشاطك ان يتحول الى طاقة نفاثة باقرب وقت . ويومها سوف تطير يا منصور . والناس سيتحدثون عن اعجوبة بشرية نفاثة . أولا يرضيك هذا يا منصور؟

كل شيء يرضيك ما دام يتعلق بالحذاء الاحمر اللامع .. ما لك ترتعش هكذا ؟ أو هزك ذكر الحذاء الاحمر اللامع ؟ آه ! كم سيهزك ويشغل خيالك ، هذا الحذاء السحري ، قبل ان تمتلكه .

آه ، ما اشقاك ، ايها اليتيم ، وانت تجتر حلمك السرابي . اسمع! لا تكن سخيفا . ها هو مخزن الاحذية الحديثة . وها هو حذاؤك الساحر يجلس على عرشه الفضي ، داخل الواجهة الزجاجية .

لا يجب ان تحلم الان . انت تشاهد حقيقة ، كما شاهدت حصان طروادة الجبار في السينما . اقرأ : صنع في ايطاليا . السعر ثلاثة دنانير ونصف . انت تجيد القراءة جيدا . وبخاصة قراءة مسقط رأس هذا الحذاء العجيب . ترحم على والدك الذي علمك ثلاث سنوات في المدرسة . وفوق ذلك ترك لك ارثا عجيبا : ساعة جيب ـ ما زالت تبتلع الزمن منذ الحرب العالمية الاولى ـ وصندوقا لمسح الاحذية ـ وهو يضغط على كتفك الان ليذكرك به ـ وبذلة عتيقة ، سوداء ، على أبواب البلى ، واما بائسة ، وثلاثة اشقاء ينتظرون ما في جيبك كل مساء .

انك تتصرف كالرجال يا منصور : تعمل لتعيش . وتعيش لتعمل .

نعم ، انت رجل صغير يا منصور ، في جلد صبي ذي ثلاثة عشر عاما .

منذ متى بدأت قصتك مع هذا الحذاء اللعين ؟

انت تجيد العراحة كما تجيد الامهات الولادة . قل ، اذن ، ان اصابع قدميك التي ما زالت ، منذ سنين ، تطل من داخل حذائك هي السبب . قل يا منصور . اعترف . لا تخجل فلا أحد يستطيع ان يسمع افكارك .

كلك غباء يا منصور . لم لا تترك عنك هذا الطموح ؟

انت تظلم نفسك . حصولك على حذاء جديد ، احمر ، لامع لمرة واحدة في حياتك لا يأتي بزلزال لاهل المدينة .

منذ طفولتك وانت تحلم بحذاء جديد يا منصور . كل ما سبق وانتعلت من احذية كلها كانت عتيقة ، مشققة ، ضيقة او واسعة . ولا تدري من أين كان يأتي بها اليك ابوك . رأسك ما زال يختزن سخريات وتهكمات اترابك ايام الاعياد : « انظروا الى منصور كيف تطل اصابع قدميه من الحذاء كما تطل ديدان من شرانقها . لم لا يشتري لك والدك حذاء جديدا يا منصور ؟.. دعه ، فوالده ماسح احذية فقير . اذهب عنا . وعندما تمتلك حذاء جديدا احمر لامعا ، كأحذيتنا ، تعال والعب معنا » .

آه ، لا تزال أصواتهم تضج في رأسك . ولن تزول ما لم تدخل الى هذا المخزن وتشتري الحذاء .

سوف تقف في الحي ـ وانت ترتدي بذلتك وتنتعل حذاءك ـ على مرأى من اترابك كما يقف « جيمس بوند » في السينما . وستصرخ بهم : تعالوا القوا نظرة على منصور العجيب !! انظروا ! حذاء ايطالي بثلاثة دنانير ونصف !! أنت يا سمير ، هل سبق ورأيت والدك الموظف يقتعل مثله ؟ وانت يا فارس هل حلمت يوما ان ترى مثل هذا الحذاء ؟ وانت يا جميل ، كلكم يا قمران الحي ، تعالوا وانظروا الى الحذاء كيف يعكس وجوهكم الصفر من شدة بريقه . ها ... ها ... ها ...

سوف تحصل على الحذاء يا منصور ولو كلفك عشر سنين من عمرك . في جيبك ، الان ، دينارات ، أدخرتهما بالفلس وعشراته ، ولا يعلم بهما ابليس نفسه . آه ! انظر اليه كيف يتحداك من وراء الزجاج .

ما اقربه منك يا منصور . وما ابعده عنك ايضا . انه يبرق كصفيحة ينعكس عليها ضوء . وهذا الشريط الاحمر المتدلي من ثقوبه ، كسلسلة من حرير ، ترتعش له انامك بشوق جامح . انظر الى الحذاء جيدا يا منصور ، الا تعتقد انه ضل طريقه الى هذه الواجهة الجهنمية وحشر نفسه بين هذا الحشد التافه من الاحذية ؟

في القريب ستخرجه من سجنه الزجاجي . بقي دينار ونصف ويتم اطلاق سراحه . ستدعه يجوب معك الشوارع الفخمة والاحياء الراقية . سوف تعامله كاسير ذي شأن ، تعطيه وجبة غذائية كل يوم من « البويا » الممتازة . وتزيده بمقدار كاف من « دهن اللوز » الذي يشحنه بطاقة عجيبة من البريق . واما في الليل فستضعه بالقرب من فراشك لئلا تقرضه الجرذان الضخمة التي تشاركك بيتك . واما في الشتاء فستضعه في سجن يليق به لئلا يتعرض للامطار والاوحال .

وماذا بعد يا منصور ؟

لقد طال بك الوقوف . وها هو صاحب المخزن يحدجك بنظرات صاعقة . لقد تجرأ ابن اللئيمة ، منذ أيام ، وطردك شر طردة . شتمك وشتم نبعك . فكأن الوقوف والنظر الى واجهة محله ، من قبل ماسح أحذية مثلك ، جريمة لا تغتفر . لكن .. مهلا يا رأس الغول ! في الغد عندما احمل اليك الدراهم.واطلب منك الحذاء ستنحني عارضا خدماتك بكل ظرف ولطف . سوف اساومك عليه نصف ساعة على الاقل . بينما انا اتحرق شوقا الى اخذ الحذاء والانطلاق به .

يا منصور ، اذا بقيت دقيقة واحدة بعد سيخرج اليك ويحطم فكيك بقبضته المخيفة . انك لا تستطيع ان تتصور كيف يمكن لمثل هذا الجلف ان يتمتع بذوق رفيع باستيراده لحذائك الرائع .

والان كفاك ما اضعت من وقت . انها التاسعة . يجب ان تعمل حتى المساء دون كلل . نصف ساعة وانت واقف ، كصنم ، تعيش في أحلام اليقظة . هيا ، انطلق وفتش على رزقك . والا فلن تنال الحذاء الاحمر اللامع سوى في احلامك .

ترك منصور مكانه وسار بخطى وئيدة ، قاطعا الطريق ، باتجاه رصيف الشارع المقابل . سوف يقصد قهوة الكمال ، فلا بد ان زبائنه قد حضروا الان ، وهم بانتظاره ولا ريب . وعن بعد قليل لمح سيدا انيقا يقف امام باب احد المحلات . آه ، ها هو يومىء له . بل انه يناديه ايضا . اللعنة على هذه السيارات الهادرة التي لا تترك للسمع مجالا .

سارع منصور بالاتجاه نحو الرجل . آه ، انه يبدو سيدا محترما. وحذاؤه لن يكلفك عناء كثيرا . فهؤلاء الاسياد يحرصون ، يوميا ، على مسح احذيتهم الجديدة حتى ولو كانت تعكس كمرآة .

وقف منصور امام الرجل وقال :

ـ صباح الخير . او تريد ان تمسح حذاءك يا سيدي ؟

الرجل وهو يبتسم :

ـ بالطبع . والا ما شاني بك لانا ديك ؟

ـ لكن .. هنا ممنوع على الرصيف يا سيدي .

ـ لا احد يجبرك . اذا كنت لا تريد فانصرف .

كيف ينصرف ؟ وهل كان لمثله ان يرفض رزقا حتى لو عمل من اجله في مكان ممنوع ؟

ـ تفضل بالجلوس يا سيدي .

تناول الرجل كرسيا كان بقربه ، وجلس .

شهق منصور متعجبا ، انه توأم حذائك الاحمر اللامع ! ما أسعدها من صدفة . سوف تجعله له كمرآة .

رأى منصور نفسه يسأل الرجل بينما هو منهمك في عمله :

ـ معذرة ، يا سيدي ، من أين اشتريت هذا الحذاء الجميل ؟

ـ من نابولي .

اذن ليس من مخزن الاحذية الحديثة ؟

ـ واين تقع نابولي هذه يا سيدي ؟

اجابه الرجل بدهشة :

ـ في ايطاليا .

ـ واين هي موجودة ايطاليا يا سيدي ؟

قال الرجل بصبر نافد :

ـ في اوروبا . ولا تعد تسألني شيئا .

هذه معلومات جديدة عن حذائك ، أكتسبتها الان .. وستضيفها الى معلوماتك السابقة عنه . كرر ما قاله الرجل لتحفظه بسهولة . نابولي في ايطاليا .. وايطاليا في اوروبا .

ولكن اين توجد اوروبا يا ترى ؟

انت لا تجرؤ بعد على سؤال هذا السيد العديم الصبر . واذا فعلت فسيقذف بك وبصندوقك الى عرض الشارع . سوف تسأل غيره فيما بعد . لكن .. اورأيت ، يا منصور ، كم هو مهم هذا الحذاء العجيب ؟

ـ لقد انتهيت يا سيدي . وها هو حذاؤك يعكس كمرآة .

تامل الرجل حذاءه مليا ثم قال :

ـ انك ماسح أحذية مدهش . انا صاحب هذا المحل . تعال كل يوم لتمسح حذائي .

اخرج الرجل مئة فلس من جيبه ونقدها لمنصور ، ثم تناول كرسيه ودخل الى محله .

مئة فلس اعطاك ؟! كنت تحسبه سيدفع خمسين فلسا كالاخرين . آه ، لو كان زبائنك كلهم على شاكلة هذا السيد اذن لما مضى ثلاثة أيام الا ويكون الحذاء الاحمر اللامع في حوزتك .

وقبل ان يهم منصور بمغادرة مكانه بلحظات ، رأى مراقبين من مراقبي البلدية ينتصبان امامه ، بينما يتطاير من اعينهما شرر . وانقض احدهما على منصور يشبعه ضربا . بينما استولى الثاني على صندوقه ، وهو يصرخ :

ـ الا تعلم انه ممنوع العمل هنا ، على رصيف الشارع ، يا ابن الشياطين ؟

بحركة بهلوانية تملص منصور من المراقب الغاضب . ووقف بعيدا وهو يصرخ بصوت فيه رعب وضراعة :

ـ لن أعود الى العمل هنا مرة ثانية ، ابدا . اقسم لكما بتربة والدي . اتركا لي صندوقي هذه المرة . ارجوكما ان تتركاه انه مصدر رزقي الوحيد .

في هذه الفترة ، كان المراقبان قد فرغا من وضع صندوق منصور في عربة البلدية .

وتحسس منصور جيبه ، بينما دمعتان حارتان تنسكبان فوق وجنتيه .. هذان الدينارات من اجل الحذاء الاحمر اللامع ، لا من اجل شراء صندوق جديد . لا ، لا يمكنك ان تمسهما يا منصور .

وهم بان يصيح بالمراقبين : « ولكن .. الحذاء الاحمر اللامع .. الحذاء الاحمر اللامع ! »

غير ان صوته لم ينطلق .

الكويت

نايف شرف الدين

دار بيروت للطباعة والنشر في بيروت

تقدم للقارىء العربي الموسوعة التاريخية :

الكامل في التاريخ

لابن الاثير

وهو مرجع جامع لحوادث الزمان ، يعد من امهات مصادر التاريخ . ابتدأ بأول الزمان منذ آدم ، وذكر اخبار مولد النبي محمد (ص) وحروبه ، وقبائل العرب وحروبها ، وفتح الاندلس وحروب العرب مع الفرنجة ، والحروب الصليبية وانتصار صلاح الدين الايوبي . وما تعاقب من ملوك ودول ومن حروب وفتوح . وقد اعتمدنا الطبعة الاوروبية وذيلناها بتعليقات وتحقيقات .

يقع في اثني عشر مجلدا